

## أنت المليك عليهم وهم العبيد إلى القيامة

لم يشعر رببعة بن عمرو فى يوم من الأيام بضيق أشد، ولا حيرة أعظم مما شعر به فى ذلك الصباح. كانت الحرارة منذ طلوع الشمس تلفح الوجوه لا يخفف منها هبوب نسيم، ولا يفل من حدتها ظل سحابه.

وكانت الحوادث تتوالى فى سرعة عجيبه، كأن الأقدار قد اعتزمت أمراً فهى تنفذه خطوة بعد أخرى جرياً على سنن، وسيراً على خطة.

جلس فى خيمته وحده يفكر فى كل ما مضى به فى تلك السنوات الغابرة. لقد وثق حجر به واعتمد عليه، فحاول أن يمهد له الوعر ويقوم المعوج، لم يترك حيلة لم يلجأ إليها، ولم يدع نصيحة لم يخلص فى تأديتها حقها. حاول أن يحفظ امرأ القيس وأن يسمو به إلى ذروة المجد التى كان ذكاؤه وشجاعته يؤهلانه لها فخاب أمله، ورآه يطرد من منازل أبيه ليتشرد، ويُفنى نبوغه مع الصعاليك فى الشراب والمجون. ثم حاول أن يسترضى بنى أسد عن حكم ملكهم، فأتهمّ وساءت به الظنون؛ وحاول أن يحمل مولاه على الاعتدال والرفق فى حكمه، ولكن حُجراً كان لا يرضى من رعيته بغير الخضوع الكامل فى كل ما أراد؛ وقد حتمت عليه حروب أبيه

الملك الحارس أن يشتد في مطالبتهم بالأموال، وأن يأخذ منهم فوق ذلك ضريبة من الأنفس يبعث بها إلى الحرب التي كانت بين أبيه وبين منافسه العنيف المنذر بن ماء السماء.

وانتهى الأمر بعد كل هذا إلى أن ثار بنو أسد به، وثار هو بهم، فضربوا أعوانه وضربوهم بالدماء، فانقم منهم أشد انتقام، يضرب سراتهم بالعصا، ويقتل شيوخهم أشنع قتلة في السجن، وأصبح بينه وبين رعيته ما لا يمكن أن يستقرّ عليه ملك، ولا يمكن أن تعود معه مودة. وكانت رسل المنذر بن ماء السماء لا تنفك تفد إلى بنى أسد تحرضهم على العصيان، وتمنيهم وتعدهم أحسن الجزاء، إذا هم وثبوا بصاحبهم، فكانت الأمور كل يوم تصير من حال إلى حال أسوأ، ومن شدة إلى شدة أضيق. كل هذا وربيعة يكدح عقله وقلبه في سبيل التماس الحيلة لإصلاح الأمور، فلا يجدها تزداد إلا فسادًا.

جلس في خيمته والحزن يملأ قلبه واليأس يساوره من كل جانب، وفيما هو كذلك أتى إليه رسول الملك حجر يدعوه إليه، فنظر إلى الرسول وكان رجلاً من قبيلة كندة، من جنود الملك الذين كانوا لا يرون في العرب أحداً يستحق المحاسنة إلا أن يكون كندياً، فخطبه الرجل في جفاء قائلاً: «قم إلى الملك سريعاً».

ثم مضى عنه وهو يخرق الرمال بزجّ رمحه في هيئة التحدى والاحتقار.

لم يجب ربيعة بلفظ، بل قام وهو يتنفس مهمومًا، وسار في آثار الرجل ينظر إليه آسفًا أن يكون الأمر قد انتهى بمليكه إلى أن يقيم سلطانه على بطش هؤلاء الجفاة، حتى بلغ خيمة الملك فدخل ولا يزال الهمّ يملأ جوانحه.

وكان حجر في ذلك اليوم على غير ما كان عليه بالأمس. كان بالأمس ثائرًا غاضبًا مخيفًا، وأما في ذلك اليوم فقد كان مهموم النفس كثيبًا خائرًا. وما وقعت عليه عين ربيعة حتى أدرك أنه لا بد قد أرسل إليه في أمر جلل، وأنه لا بد قد وقعت به كارثة من تلك الكوارث المتعاقبة التي اعتادت السنوات الأخيرة أن تطالعه بها بين حين وحين.

دخل ربيعة صامتًا، وحيًا في هدوءٍ قائلاً: «عم صباحًا أيها الملك الهمام».

فقال حجر حزينا: «عمت صباحًا يا أبا نعيم».

وكان الملك لا ينادى ربيعة بهذه الكنية إلا في أشد أوقاته وأعظمها كربًا، فقد كان يحسّ عند ذلك أن في هذا الرجل وحده أمله الفرد في النجاة.

وأفسح حجر له مجلسًا إلى جانبه، وأشار إليه أن يجلس، فذهب ربيعة وقعد تجاهه وأطرق في انتظار ما يقوله له مولاه. وساد الصمت لحظةً ثم قطعه حجر قائلاً بصوتٍ خافت: «ألم تسمع بما كان؟».

فنظر ربيعة إليه فى اهتمام وقال: «لعله يكون خيراً». فقال حجر فى بطة: «لقد أتى إلى الساعة رسول من الملك الحارث». فأسرع ربيعة قائلاً بلهفة: «لعله أتى بخير!».

فقال حجر بحزن شديد: «بل أتى بمصابٍ جليل ورزءٍ عظيم». فصمت ربيعة وجلاً من سماع النبأ، ولم يسأل عن ذلك المصاب. وبعد سكوت لحظة استمر حجر فقال فى حزن عميق مكتوم: «ثمانية وأربعون من بنى آكل المرار، ثمانية وأربعون من أبناء الملوك يساقون إلى الثوية عند الحيرة فى ديار بنى مرين، يسوقهم بنو تغلب الغادرون إلى المنذر ليقتلهم! ذلك المنذر الذى كان شريداً ينتقل فى القبائل خائفاً من أبى، يتلمس النجاة ويطلب الأمن فى جوار القبائل!».

وصمت لحظة ثم تنفس نفساً عميقاً وقال وقد علا صوته واحمر وجهه: «ويل لتغلب! لقد غدرت ونقضت عهدها وساعدت المنذر على الملك الذى كانت تدين له، والذى كان يغمرها بإحسانه وبفيض نعمه. غدروا بملكهم وانتهبوا أمواله وهجأته، وأسروا أبناءه وأبناء إخوته. ثمانية وأربعون أميراً من بنى آكل المرار يلاقون حتفهم على يد الخونة الغادين! ثم تُرمى جثثهم للطيور والوحوش تنهشها وتقطعها! ويل للمنذر! وويل لتغلب!».

وصمت حجر بعد ذلك وقد غلبه الغضب والحزن، ولم يجد ربيعة سبيلاً إلى معاودة الحديث معه، ولم يجد من القول ما يقوم بتعزيته فى مصابه، فسكت فى وجوم، وأطرق يفكر فى ذلك

الخطب الجديد. وكان حائراً في فهم قول حجر فلم يدرك منه إن كان الحارث قتل فيمن قتل في وقعة الثويبة، أو كان لا يزال حياً بعد أسر أهله. وأدرك حجر أنه لم يخبر صاحب سره بكل ما بلغه من أنباء المصاب، فأخذ بعد صمته يحدثه بما بلغه، فأخبره أن الحارث نجا من عدوه في عدد قليل، فلجأ إلى بني كلب، وهناك أصابه مرض شديد فأرسل إليه ذلك الرسول الذي وفد إليه ليخبره بتلك القصة المحزنة وليطلب منه أن يذهب إليه ليراه قبل موته.

فأدهش هذا القول رببعة فقال في دفعة: «تذهب إليه؟».

فنظر إليه حجر وقد أدرك سر دفعته ثم قال: «نعم هذا ما جاءني من أبي فماذا ترى؟».

فقال رببعة في ثبات وثقة: «لا ينبغي لك أن تذهب فإنك تعرف أن من بقي هنا من غطفان وقيس، ليسوا أقل تبرماً من بني أسد، وإذا بُعدت عنهم لم تأمن وتوبهم في غيابك».

فقال حجر: «ولكني أتركك هنا في جنود كنده ومن معك من الصنائع الذين ينصروننا من قبائل العرب».

فهز رببعة رأسه شاكاً في حكمة هذا الرأي، ولكنه صمت ولم يجب.

فقال حجر: «أراك تخالفني!».

فقال رببعة: «لقد أرسلنا مع بني أسد نصف جنودنا لكي نطمئن إلى حراستهم حتى يبلغوا تهامة، ولم يبق معنا هنا من يكفي للقسمه بين ذاهب معك لحراستك، ومقيم في الديار لحراسة ملكك».

فتردّ حجر حيناً وجعل يفكر، ثم نظر إلى ربيعة وهمّ أن يفضى إليه برأيه لولا أن دخل عليه رجل من جنوده رافعاً صوته في شيء من الوقاحة يقول: «هذا الرجل لا يستقر على قرار، ولا حيلة لنا فيه إلا بقتله».

فنظر حجر إلى البدوي الذي دخل يخاطبه بهذه الجرأة وعبس عبسة خفيفة ثم ملك نفسه وقال: «من تعنى يا أخا كندة؟».

فقال البدوي: «ذلك الأسدى القعقاع عبيد بن الأبرص لا يزال يعوى يريد أن يراك، وينشد الأشعار ولا يمتنع عن البكاء ليلاً ونهاراً».

فنظر إليه حجر وقد ظهر عليه الحقد والغضب، وكاد يلتقى إليه أمره، لولا أن بادر ربيعة فقال بصوتٍ فيه تल्प وخشوع: «مولاي!». ومد يديه نحوه في ضراعة.

فأمسك حجر عن إلقاء أمره، وصمت لحظة محاولاً أن يهدئ من غيظه، ثم قال كأنه يخاطب نفسه: «لوددت أنى أراه يتمزق عضواً فعضواً».

فمال ربيعة نحوه وقال بصوت خافت: «دعه لى الآن يا مولاي». فسكن غضب حجر قليلاً، وكأنه أحس في ضراعة ربيعة إليه أن له قصداً خفياً، ثم التفت إلى البدوي الواقف أمامه ينظر إلى ربيعة باحتقار ظاهر، وقال له: «دعه الآن يا بن أخى».

فرفع البدوي رأسه ونظر إلى ربيعة مرة أخرى في كراهة وخرج وهو يخبط الأرض برمحه خبطاً عنيفاً.

ولما صار رببعة وحده مع الملك أقبل عليه قائلاً: «أرى فرصةً  
تسبح لنا يا مولاي».

فقال حجر باهتمام: «وما تلك الفرصة؟».

فقال رببعة وقوله يكاد يكون همساً، وهو ينظر حوله خوف  
أن يسمع أحد قوله: «إذا كان لا بد لك من المسير إلى الملك الحارث  
فلا مناص من وجود كل جنك ها هنا».

فرفع حجر حاجبيه متعجباً وقال: «ولكنك تعلم أننا لا نقدر  
أن ندع بنى أسد يمرحون وحدهم في تهامة لا بد من وجود جنودنا  
معهم يحرسونهم».

فقال رببعة جاداً: «هذا ما أردت أن أتحدث فيه. أرى أن إبعادهم  
من هنا فيه خطر شديد علينا. وأولى بنا أن نجعلهم ها هنا تحت  
سمعنا وبصرنا».

فقال حجر في قسوة: «أو أراهم صباحاً ومساءً؟ أأصبحهم  
وأمسيهم بغير القتل والضرب والعذاب؟».

فقال رببعة: «أبيت اللعن! لست في علو مكانتك بأهل لهذا  
الحقد. فالعفو أقرب إلى شيم الملوك».

فهدأ حجر وصمت لحظة ثم قال: «ولكن كيف السبيل؟ لقد قضى  
الأمر، وسار القوم عنا».

فأسرع رببعة قائلاً: «تردهم. ترسل في أثرهم فتسترجعهم».

فقال حجر في شيء من الغضب: «وأرأى ناكلاً عن أمرى؟ إن هذا  
لا ينبغي لمثلى».

فقال ربّعة بإصرار: «ولكنك تكون متفضلاً؛ إن هذا الرجل الشاعر الذي كان يغازبك بالأمس يريد أن يراك. ولا أظنه إذا جاء إليك إلا طالباً عفوك متذلاً خاضعاً. فإذا أنت عفوت عنه وعن قومه بعد ذلك كنت متكرماً، وأمكنك أن تعيد القوم إلى هنا وتستعيد معهم جنودك، ولن يزيدك ذلك العفو إلا مهابة في القلوب، ولعله يكون سبباً في استصفاء النفوس بعد كدرها، واستقرار الأمور بعد تزلزلها. هذه هي الفرصة التي رأيتها تسنح لنا».

فأطرق حجر يفكر ملياً في قول ربّعة، ثم رفع رأسه بعد قليل وقال مستسلاً: «قم إلى ذلك الشاعر وأحضره وافعل ما بدا لك يا أبا نعيم».

فأسرع ربّعة خارجاً، وجلس حجر وحده مطرقاً يفكر فيما هو صانع، وكانت أفكاره لا تستقر، وهو اجسه لا تنقطع، حتى عاد إليه ربّعة يقود عبيد بن الأبرص يرسف في قيده، وقد امتنع وجهه، وظهرت عليه آثار عصى حراسه الكنديين ولكماتهم. وتحامل الشاعر حتى وقف أمام حجر، وهو يهتز من الضعف، وأخذ ينشد:

يا عين فابكى ما بنى	أسد فهم أهل الندامة
أهل القباب الحمر والنّ	عم المؤبّل والمدامة
وذوى الجياد الخرد وال	أسل المثقفة المقامة
حلا أبيت اللعن حلا!	إن فيما قلت أمه

فى كل واد بين	يثرب فالقصور إلى اليمامة
تطريب عان أو صيا	ح محرق أو صوت هامه
ومنعتهم نجدًا فقد	حلوا على وجل تهامه
برمت بنو أسد كما	برمت ببيضتها الحمامه
جعلت لها عودين من	نشم وآخر من ثمامه
إما تركت تركت عف	وأ أو قتلت فلا ملامه
أنت المليك عليهم	وهم العبيد إلى القيامه
ذلوا لسوطك مثلما	ذل الأشيقر نو الخزامه

وكان حجر فى أثناء إنشاد عبيد مطرقًا، يفكر فيما هو صانع، وتنازعت الآراء، وتجادبته الميول، ولم يدر بماذا يجيب، فرفع بصره إلى ربيعة كالمستنجد، فوقف ربيعة وبسط إليه يديه متذللًا، وقال له: «هبنى هؤلاء، فقد بلغت منهم ما لا رجعة بعده إلى شق طاعة».

فذهب عن حجر التردد ونهض من مجلسه ذاهبًا نحو عبيد، فقبض على ذراعه وهزها هزًا عنيفًا، وقال له فى غضب: «أليس أنت المتكلم بهجوى، الساعى فى الوثوب بى؟». فقال عبيد منكسرًا: «لقد كان جهلا وحمقًا». فقال حجر وهو يهزه بعنف مرة أخرى: «ألسنت أنت الوقح الذى تقول:

فانظر إلى ظل مُلك أنت تاركه      هل نُرسينَ أراخيه بأوتاد؟»

فأجاب عبيد فى خضوع: «عفوًا أبيت اللعن، لولا الذنب ما كان العفو».

فقال حجر وقد بدت على وجهه أمارات الارتياح: «أفٍّ لهؤلاء الشعراء! لهممت أن أقطع لسان كل من قال شعراً».

ثم نظر إلى عبيد وقال: «انذهب ثكلتك أمك، فقد حقنت دمك ودماء قومك».

فرفع عبيد يديه، وقال فى لهفة وفرح: «دمت للمكرمات!».

ونظر حوله فزعاً إلى ربيعة مرة وإلى الملك مرة، وقد غصَّ بريقه فلم يقو على الكلام، فنادى حجر بعض الأعراب من الجند الذين كانوا وقوفاً عند بابه، فدخل اثنان منهم مسرعين فى سرور يحسبان أن الملك سيأمرهما بقتل ذلك الشاعر الكريه؛ ولكن حجراً قال لهما مشيراً إلى عبيد فى نغمة احتقار ظاهرة: «انذبا به فأطلقاه».

فظهر على وجهيهما تجهم خيبة الأمل، ودفا الشاعر أمامهما وخرجا به من الخيمة، وهو يحجل فى قيده متلفطاً إلى يمينه ويساره كأنه غير مؤمن بالنجاة. وبقي حجر بعد خروجه حيناً وهو مطرق، ثم قال ربيعة فى صوت خافت: «أحس كأننى أصعد فى وحل يا ربيعة».

فأجاب ربيعة مطمئناً: «لا بل قد عاد الأمر إلى أيدينا بعد أن كاد يتفلت منها».

فقال حجر وهو يتنفس: «هيه! ماذا نملك لأنفسنا من قضاء الآلهة؟ أرسل إلى بنى أسد كما شئت فردهم إلى هنا. وليكن ما يكون».

فخرج ربيعة لينفذ أمر مولاه، وقلبه يكذب ما كان يقوله من ألفاظ الأمل والثقة. ثم سار في سبيله إلى بيته ليعد بعض هجائنه السريعة لتحمل رسوله إلى بني أسد. ولكنه ما كاد يخطو خطوات قليلة حتى وقف مشدوهاً كأنه رأى شيئاً مخيفاً، وتردد ونظر إلى ورائه، كأنه يهيم بالعودة إلى الملك ليسأله أن يعود في أمره، فقد هبط عند ذلك غراب مسرعاً في طيره كأنه الصقر، واعترض سبيله آتياً من يمينه إلى شماله وهو ينبع نعيباً مفرغاً.

وقف حيناً في حيرة لا يدري أيمضى في سيره بعد اعتراض هذا الطائر المشئوم سبيله أم يعود أدراجه طاعة لنذير الآلهة؟ واضطربت في رأسه الخواطر سراعاً، وامتلاً قلبه فزعاً، ولكنه رأى أنه لم يبق له إلا المضي في سبيله، فقال في نفسه وهو بين الفزع والضيق: «هذا نذير الآلهة! ولكن ما الحيلة في مشيئتها؟».

ثم مضى نحو بيته بقلب ثقيل.

وبقى حجر في خيمته بعد ذهاب ربيعة، وجعل يفكر فيما انتهى إليه رأيه، ويقلب وجوهه، فساعة يطمئن، وساعة يقلق، ثم هز رأسه مستسلماً وقال: «دع الأيام تجري في مجراها، ولننتظر ما يأتي به الغد إذا أتى».

ثم اضطجع على وسادة ووضع يده تحت رأسه وذهب مع فكره يضرب في الآفاق.

فى مساء ذلك اليوم كان حجر يسير فى ركب عظيم من جنده ميمماً  
حدود العراق تلبية لنداء أبيه المريض الحارث بن عمرو، والمقيم فى  
بنى كلب، بعد أن هرب من عدوه المنتصر المنذر بن ماء السماء.  
ولما أقبل الليل وطلع البدر، وهدأ حر الهواء وبدأ النسيم يهب  
من الشمال حلواً بارداً، عاد الأمل إلى قلبه، فجعل يملأ صدره  
من الهواء الصافى، وينظر إلى صفحة السماء ويقلب نظره مرتاحاً  
بين نجومها المضيئة، وخيل إليه أن متاعبه قد زالت، وأن أملاً  
جديداً يطالعه، وأنه سوف يعاود صفاء الزمان ويسترجع الأمن  
والاطمئنان، وأنه سيجد أباه قوياً معافى، فيهبط معه على أعدائه  
بعد أن يجمع القبائل ويؤلبها ويحشدها، وأن انتقامه من عدوه  
سيكون عظيماً يدق الأعناق.

\*\*\*